بسم الله الرحمن الرحيم

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت

المشيخ عبد العزيز العلي المطوع *

١ — « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير »

٢ — « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور »

٣ — « الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »

٤ — « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »

٥ — « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين » .

اشتملت هذه الآيات الخمس على أمور هامة متعددة الجوانب شأنها شأن كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد ظهر لي منها معنى علمي رأيت تسجيله ونشره تذكرة لأولي الالباب ، ملتمساً من الله التوفيق والصواب .

أشارت الاية الاولى إلى أن ملكوت كل شيء بيد القدير المهيمن ، إذ أن لكل شيء ملكوتا ، وملكوت كل شيء بيده ، كما جاء في آخر سورة (يس) « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ، وفي سورة المؤمنون « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ ، سيقولون : لله » .

وأشارت الاية الثانية إلى إحاطته تعالى بالموت والحياة وخلقه أسبابهما ومظاهرهما كالذرة والحجيرة بعواملهما الكاملة ، إذ أن لكل ذرة أو جزء من غاز أو سائل أو متكتل عمل مستمر ، وإن شئت فقل رقص مستمر ، لما يؤيد ذلك قوله تبارك وتعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء » ، على أن بيت القصيد

* وهو من كرام التجار ذوي الغيرة الذين يقدرون الاعمال النافعة قدرها ، ينظر لدينه ويعمل له عمله ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا ، و « ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا »

في هذه المخلوقات هو المسئول المأمور بالتبصر والتفكر فيها ، ليتعرف إلى واجبه فينهض بعبء الامانة ، بعد أن أبت أن تحملها السموات والارض والجبال وأشفقن منهـا وحملها الانسان ، وكان ظلوماً لها جهولاً بقدرها ، حين يقصر في نظره وأداء واجبه على اثر معرفته المستبصرة ليجازي على أعماله في جميع ساحات الحياة من ربه « وهو العزيز الغفور » ، العزيز الذي لا ينال العلم من عزته شيئاً مهما تقدم فتمكن به الانسان من استخدام القوى الطبيعية التي سخرها الله لامره ولو بلغ الامر منتهاه ، فاستطاع الانسان أن ينفذ من أقطار السموات والأرض ، وماذا يبلغ الانسان وهو لا يستطيع أن يحتل جرماً طبيعياً واحداً كما جاء في سورة الرحمن « يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ، وما أعقب هذه الاية ، إنه سلطان من القدرة والعلم والحركة والعمل والادارة والنظام ، وذلك مبلغ الانسان كما أوضحته هذه الاية الكريمة لا يعدو قدر الانسان المخلوق بالنسبة للخالق صاحب الملكوت الذي بيده مقاليد كل شيء وإليه يرجع الامر كله ، فلا ينازع الله في سلطانه ، وهو يرى أن مبلغه من السلطان محدود ، وأنه راجع بذلك كله إلى ربه ، ولذلك أمره تعالى بقوله « فاعبده وتوكل عليه » يخضع العالم بسلطانه لمالك ملكه ، وتجلى بذلك عزة الغفور للذنوب واللمم التي تلم بالانسان لصاحب حياته وتلازم ضعفه ، فيتصاغر خاشعاً ، ويركع ساجداً ، ويقول : « تبارك الذي بيده الملك » والحياة والموت والجزاء على العمل ...

إن سلطان الانسان كما أوضحته هذه الاية الكريمة ، يمتد إلى آفاق واسعة جداً بفضل العلم وهو سلطان بالغ لمعشر الانس ، ولمعشر الجن بمقابلة سلطان الروح ، وإن منتهى قدرة الانس والجن عند حدها من الارض إذ قال تعالى عقب الاية الانفة من سورة الرحمن « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » حين تتجاوزان حدودكما وما أعطاكما سبحانه وتعالى من السلطان ، فاحذر أيها الانسان ولا تغرر بنفسك ، ولا تستكبر بإثمك ، فانه سبحانه (الغفور) من عزة لمن شاء من عباده ، فلا تتعدين الحدود عامداً جاهداً ، فان التقصير في العبادة والتفكير والعلم وغير ذلك لا يخلو منه إنسان ، ولا تتزيد عناداً وطغياناً فتلق من نار ونحاس شواظاً :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وأما الايتان الثالثة والرابعة فقد بينتا وجهاً من وجوه عظمة الخلاق العليم « الذي خلق

سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، تراه من الوجود في كل موجود في خلقه وتكوينه ونظامه ، وإن لكل شيء من الخلق على صغره ملكوتا كاملاً على نسق ملكوت السموات بدون تفاوت ، فاذا كان ملكوت السموات من سبع طبقات ، فكذلك كل ملكوت لكل شيء تراه أو لاتراه ، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) . ولقد أظهر العلم من ذلك أشياء أضرب منها أمثلة تؤيد هذا التفسير والنظر ، فهذا الجلد له طبقاته السبع وهذه الأرض لها طبقاتها السبع ، وهذه ألوان الضوء سبعة ، وهذه طبقات العين سبع ، ويؤيد هذا المعنى ماورد في آخر سورة (يس) بقوله سبحانه « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى [وقد خلق ما رأيتم وما خفي عنكم] وهو الخلاق العليم » إلى آخر السورة الكريمة ، ويؤيده أيضاً ما ورد في سورة أخرى « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » ، فاذا عرفت ذلك أيها المتأمل بكتاب الله وخلق الله ، « فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » ، فهذا الخلق كله من أعلى سموائه إلى أدنى أموره إليك ـ (أيها المكلف بالنظر) ـ إنما هي موضع لتأملك وتفحصك ، فاذا أدرك بصرك شيئاً واحداً من هذا الملكوت على كماله وتفصيله فكأنما أدرك الخلق كله ، إذ « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

إن هذه الآيات الكريمة من سورة تبارك تدعمها أخوات كما رأيت ، فهي تمثل جوانب من عظمة الخلق ليعرف الانسان مكانته ، ويبصر طريقه ، وفيم يعرف الانسان ما يعرفه بغير النظر ؟ فلينظر الانسان في منتهى ما يقع عليه بصره علواً حيث يرى السماء ، وليرجع البصر إلى ما دونها من الافاق ، ثم ليرجعه إلى نهايته القريبة ، ليرجع به إلى نفسه وبصرها بالذات هذا النظر المبصر نفسه ، ليرجع كرة بعد أخرى ، فماذا يرى غير هذه الايات المفصلة من القدرة المبدعة على نسق تام متماثل بغير انفطار ، يراه الانسان من آيات الله آيات من الخلق تدل على الخالق ليزداد إيماناً بالعظمة الالهية على هدى وبصيرة ، إذ يرى ملكوته الكامل كملكوت السموات والارض ، ويرى كل عين من عينيه مكونة من سبع طبقات مظلمة والنور مستو في أعلاها كالسماوات تماماً ، وحينذاك ينقلب إلى الانسان بصره في الكرة الأخيرة خاسئاً وهو حسير ، بصغار وحيرة أمام عظمة تراكيب الجسم ، وبالتالي عظمة عظمة الخلاق ؛ ولذلك فان الانسان كلما زاد علماً ازداد تواضعاً وازداد علمه تلاشياً أمام الأشياء الكثيرة التي لم يصل إليها علمه ، وازداد إيماناً وتعظيماً للخلاق العظيم ، ولهذا كان

أوسع الناس علما ودقة واختصاصاً ، أوسعهم إيماناً بالله العظيم من قرارة نفسه ، كما قال جل سبحانه « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وما أجل خشية المعرفة ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » ..

وإذا كانت الاية الثالثة تشير إلى أنه لا تفاوت في الخلق ، إذ أن كل مادة مكونة من عناصر ، وكل عنصر مكون من ذرات ، وهذه الذرات بتجاذبها تكاد تكون كتلة واحدة فان الاية الثانية تثبت التفاوت في العمل كما قال ﷺ (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) .

أما الاية الخامسة فانها تشير إلى أهم ناحية في المخلوقات ، وهي ناحية الدفاع حين ذكرت الرجوم ، على أن القاعدة المتقدمة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » تجعلنا نرى مقابل نجوم السماء نجوماً لكل شيء ، ولافرق بين السماء ونجومها والذرة ونجومها ، وذلك ما اكتشفه العلم من ملكوت الذرة ، إذ رأى لها نجوماً تدور في أفلاكها دورانها حول نفسها ، كما تدور حول النواة ، وقد سمى العلماء هذه النجوم كهارب وبروتونات ونيوترونات وبوزترونات وميزوترونات وديوترونات ونيوترونات حسب تراكيبها وآثارها . ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع (كتاب النظرية الذرية ، الطاقة الذرية ، القنبلة الذرية ، تأليف نقولا جرجيس شاهين أستاذ الطبيعة في الجامعة الامريكية في بيروت) فانه يرى عجباً من التفصيل ، وسيستمر العلم في اكتشافاته في ملكوت الذرة ، حتى تكون تفاصيل معرفتها أنموذجاً كاملاً لملكوت السموات والأرض ؛ ولعل من الفائدة لخدمة العلم وبحوثه أن أشير إلى طرف مما فهمت من كتاب الله على ضوء ما أسلفت من آياته المحكمة ، فاني أرى أن الذرة ليست كالمجموعة الشمسية تحسب تدور حول نفسها دورانها حول النواة ، بمنزلة الشمس وسياراتها ، وإنما النواة في الذرة أيضاً كالأرض من السماء في وضعها ونسبة تكوينها ، فان الأرض نواة السماء وقد « كانتا رتقاً ففتقناهما » كما قال تعالى في موطن التأمل بخلقه ، وحسبي الان أن ألفت نظر قارئ القرآن العظيم أن الأرض التي تراها النظريات العلمية اليوم مع المجموعة الشمسية لا تزيد على هباءة في الفضاء ، إنما هي أجل من ذلك في نظره تتم بها هذه النظرة كرة بعد كرة ، فقد خلقت قبل السماء ، ثم استوى إلى السماء خالقها فأتمها ، وطبيعي أن الأسبق أكثر زمناً . كما أنني ألفت النظر إلى ناحية ثانية ، وهي أنه لا يجد القارئ لكتاب الله آية فيها إشارة إلى القيامة والقضاء على الأرض إلا ويجد معها القضاء على السماء ، لما بينهما من تلازم في الإحكام شأنها شأن كل نوبة مع حبتها . وقد أوضح في كتابي المقبلة ، إن شاء الله ، أن السموات

والأرض المكرر ذكرها في كتاب الله لا تزيدان في الخلق على ذرة ونوانها بغير تفاوت .

وإذا رجعنا من نظره في السماء كرة بعد كرة ينقلب بها البصر إلى الانسان نفسه فاننا نرى فيه كما رأينا من دفاع في رجوم السماء ، ذلك أنا نجد أن الكريات البيضاء في جسم الانسان كمصابيح السماء تماماً من حيث الشكل والقوة الدفاعية وفي كل شيء ، وإن الجسم ليدفع بالكريات البيضاء شياطينه المفسدة تلك الجراثيم الخبيثة ، وكل ضار شيطان ، كما تدل على ذلك أحاديث نبوية كثيرة ، منها أمر المصطفى ﷺ بتغطية الأواني إذا كانت ملأى ، وبكفيها إذا كانت فارغة ، وعدم الأكل بالاناء المفطور لأنه مركب الشياطين ، وأمره ﷺ بسد الأفواه أثناء التثاؤب ، وإرشاده أن تحفظ ألبستنا وأمتعتنا من الشياطين ، وسنته بقص الأظافر ، وحف الشوارب ـ لأنها تقع في محل ضيق بين طريقي التنفس والطعام والشراب ـ ، وتعليمنا ألا يتساهل الناس ولا سيما أولاد الأغنياء بفتات أطعمتهم وفضلاتها فتسقط على الأرض وتترك فيأكلها أولاد الفقراء ملوثة ـ إذ أمر بتعجيل التقاطها قبل أن تلوث ـ وكذلك أرشدنا بالنظافة إلى أمور جمة ، وأن توصد أبوابنا لهذا النوع من الشياطين .

إن هذه الشياطين هي التي تقف الكريات البيضاء في مقام الدفاع عن الجسم ضدها كالشهب من نجوم السماء ، وثمة شياطين أخبث يحتاج الانسان لدفاع أشد فيها ، أولئك الشياطين الذين لا يعوقهم عائق ، وهم أخبث حتى من شياطين الجن المعروفين بهذا اللفظ عند إطلاقه كما قال عليه السلام في نفثاتها بأنها تجري من ابن آدم مجرى الدم ، ولا تحمينا منها الأبواب والحيطان ولا يبعدها عنا سوى ذكر الرحمن ، « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » ... وقانا الله تعالى الشياطين وجعلنا من المستبصرين لهدايته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعلى المقامات ، وله الحمد والثناء جل سبحانه : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

الكويت : عبد العزيز علي المطوع

نحن وكتابنا

قد آن أن يجد (الكتاب) جنوده ... دوّي الزمان بهديهم وتلالا
وجدوه كالشمس المنيرة دائماً ... فهموه يأبى عاجزين كسالى
فهموه إيماناً وأخلاقاً كما ... فهموه بأساً يحفظ استقلالا

أحمد مظهر العظمة